اربع سنوات على استشهاده

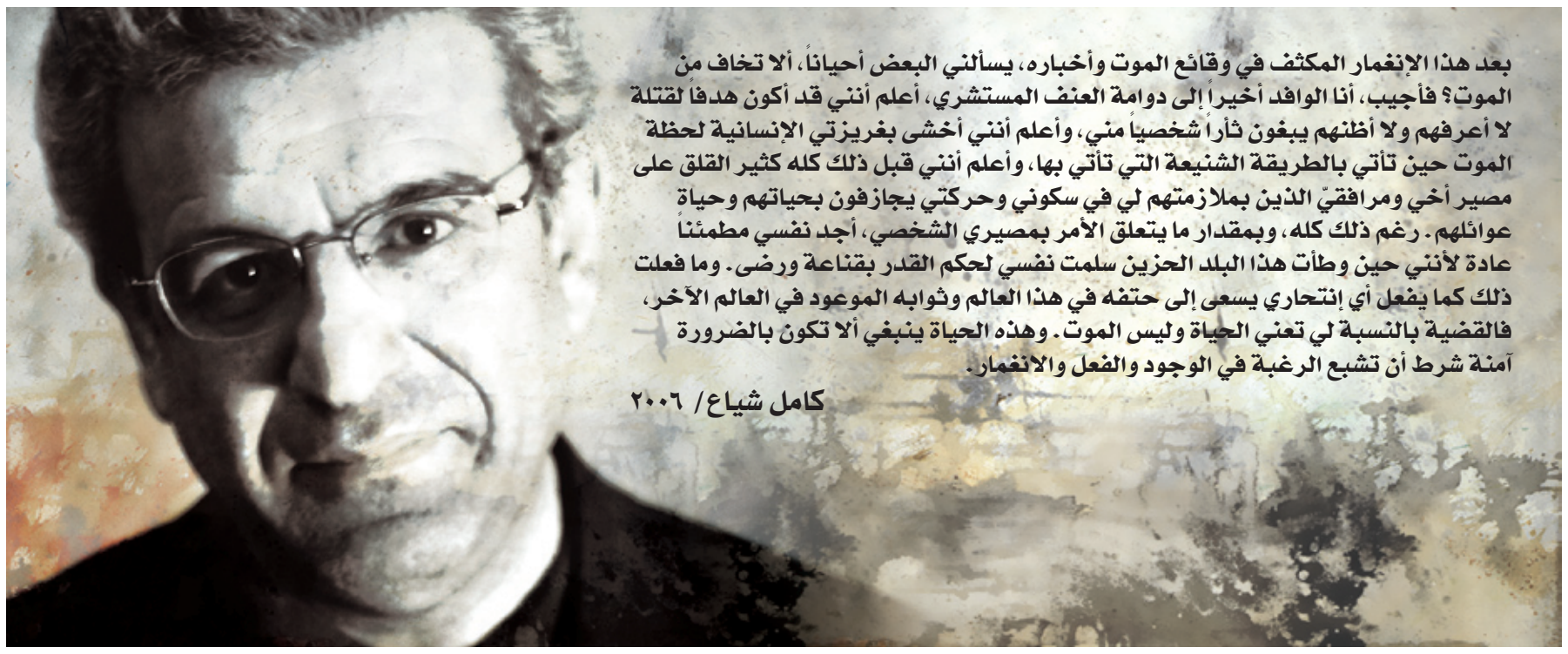

بعد هذا الإنغمار المكثف في وقائع الموت وأخباره، يسألني البعض أحياناً، ألا تخاف من الموت؟ فأجيب، أنا الوافد أخيراً إلى دوامة العنف المستشري، أعلم أنني قد أكون هدفاً لقتلة لا أعرفهم ولا أظنهم يبغون ثأراً شخصياً مني، وأعلم أنني أخشى بغريزتي الإنسانية لحظة الموت حين تأتي بالطريقة الشنيعة التي تأتي بها، وأعلم أنني قبل ذلك كله كثير القلق على مصير أخي ومرافقيّ الذين بملازمتهم لي في سكوني وحركتي يجازفون بحياتهم وحياة عوائلهم. رغم ذلك كله، وبمقدار ما يتعلق الأمر بمصيري الشخصي، أجد نفسي مطمئناً عادة لأنني حين وطأت هذا البلد الحزين سلمت نفسي لحكم القدر بقناعة ورضى. وما فعلت ذلك كما يفعل أي إنتحاري يسعى إلى حتفه في هذا العالم وثوابه الموعود في العالم الآخر، فالقضية بالنسبة لي تعني الحياة وليس الموت. وهذه الحياة ينبغي ألا تكون بالضرورة آمنة شرط أن تشبع الرغبة في الوجود والفعل والانغمار.

كامل شياع/ ٢٠٠٦

رجل المستقبل غادرنا مسرعا إلى خلوده

■ لطفية الدليمي

أود ان أقول لأخي النبيل كامل شياع وهو يؤكد حضوره الساطع في ذاكراتنا وأحزاننا:
لن نخذل احلامك لأنها أحلامنا جميعا وأحلام أناس كثر لاتعرفهم لكنهم يقيمون في حلم المستقب...
ل، في الأقل سنواصل قول الحلم بالكلمات ونحلمه بلا توقف ليلنا والنهار..
لن تجرفنا دوامة القنوط برغم أن عالمنا يفتقر إلى الانسجام والتوازن، ولن نركن قط إلى اعلان المراثي بل نواصل مسعانا لتعزيز معان جديدة وأخلاقيات مختلفة للسياسة الثقافية والغد الثقافي على هدي افكارك..
كنت تحلم بالمستقبل وتخطط لخارطته المضيئة لأنك تؤمن بالعلم وسط هيولى التداعيات وانهيارات القيم وكثافة الرعب وبين بشر لايؤمنون إلا بالثواب و الإفلات من الجحيم، ولانك ولأننا نؤمن بقيمة الحاضر كنا نرى حلم المستقبل مؤسسا على مانستنتجه من حاضرنا، فلا نمضي أبعد من معطيات واقعنا وقدرات الناس، أما من ينشدون الجنة بعد موتهم فانهم يضحون بالحاضر من أجل خلاصهم الفردي حسب دون الالتفات لأحلام الآخرين وحاضرهم وهذه هي عقدة واقعنا التراجيدية التي نعرفها جميعا..
بوسعنا – على ضوء الكثير من أفكارك –أن نؤسس لعلاقات إنسانية تفهم حقيقة الحياة و الموت، ولكنها لا تلغي الحاضر ولاتتنكر للمستقبل، كنا نعرف أن حضورك وسط هذه الفوضى إنما هو حضور في الزمن الخطأ والمكان الخطأ ووسط الحشود الخطأ التي لاتملك أي تصورات عن الحاضر والغد فهي أسيرة التاريخ وفكرة الثواب والعقاب فلا تدرك خطورة ان لاتحلم ولاتملك إلا حلم التضحية وتعذيب الذات لتضمن سعادة مابعد الرحيل..
ستقوم الانسانية فينا وإن طال الأمد وستواصل صنع تصوراتها عن الغد ٠ وتنهض من سبات الوهم و تقدر الحاضر كقيمة كبرى عندما ينجح أمثالك – وهم ندرة – في اجتياز بركة الظلمات والظلال العتيقة فيتغير مفهوم شعوبنا عن الزمن والمستقبل والحياة والموت..
أتيت أيها الصديق إلى أرض الجحيم وفي حقيبتك سفرُ من الرؤى ووراء خطوتك يركضَ حلم أوسع من طاقة مجتمع بلا حاضر وأكبر من أن تخضعه ا لتجاذبات السياسية لأحكامها المربكة، اتيت مجنحا بألف فكرة وحلم لكنك في غفلة من محبيك وأصدقائك دخلت غسق الحلم قبل أوان الشروق، وعبرت مأزق الزمن العشوائي قبل أن يتحدد أي معنى أو توصيف لفكرة الزمن في بلادنا،كنت تدرك غياب النظرة الموضوعية او العقلانية للواقع، وكنت ترى الجموع تُستنفر وتستهلك الزمن – ليس في انتاج قيم جديدة واكتساب معارف معاصرة ووضع خطط للمستقبل كما كنت ترجو في حلمك الشاسع، بل لنيل ثواب الآخرة حسب، متخطية حاضرها ولاغية غدها لأنها لاتملك أية فكرة عن علاقتها في أي زمن إلا زمن الاسطورة والابدية..
حلمك المستقبلي كان يسحبك بإيقاع متسارع نحو بوابات الغد و صرت تعدو في المتاهة وبوصلتك فكرة مثالية عن البشر ورؤية أنموذجية عن الوطن وبعض ضرورات الواقع، رأيناك تحث الخطى وسط عتمات البلاد التي لم ينبثق بعد ضوء نجاتها أو نور خلاصها وانت ترش بذور النور في مشاريع وخرائط لم يقيض لها ان تنال فرصة التحقق..
عالمنا الموغل في توحشه،وانساننا المحكوم بتفكك مجتمعه وغياب مفهوم محدد للزمن لدى الموهومين بتطبيق الديموقراطية على المثال الغربي، ديموقراطية بلا حاضر وبلا رؤية مستقبلية لان أناسها ومادة اشتغالها بشر يشيحون عن حاضرهم سعيا وراء بلوغ الثواب، هذا المجتمع وذلك العالم لم يكن مؤهلا بعد ليتقبل رجالا حالمين بالمستقبل من طرازك، رجالا من صناع اليوتوبيا الثقافية والفكرية، أبدا لم تكن الأرض لتمنح سلاما لأمثالك وهي تشتعل تحت اقدام الجميع ولم يكن الوطن قابلا للوقوف على بوابات التاريخ الجديد للانسان، عندما توهم البعض من حولنا أن التاريخ أنتهى، وان بدايات جديدة سوف تقوم على انقاض ذلك التاريخ المنظور إليه بنظرة لاتحسب حساب تعقيدات واقعنا وهيمنة الماضي على عقول الجموع، ففقدنا بهذا بوصلة السيرورة الحقيقية لمجتمع ينوء تحت ثقل التاريخ وثارات الطوائف،و عندما سقطت الدولة سقط الشعب معها في احضان الفوضى وزمن التشوش فلم تكن ثمة مشاريع لما يعقب التغيير، ولم نعد نجد حدودا فاصلة بين خرائط الأمس وخرائط اليوم، ومعظم الذين أتوا كانوا يحملون خرائط تخص شهواتهم لاخرائط أحلامنا كما كنت تفعل، وشتان بين خرائط الشهوات والمغانم وبين خرائط ا احلامك الكبرى، فنحن في بلادنا نصر على امتلاك حقائق ثابتة يحظر مناقشتها أو المساس بها، فكيف لنا أن نجترح تاريخا جديدا ونحن نتمسك بيقينات مسبقة وثابتة عن الحياة والزمن؟؟
صديقنا العزيز، كنت تعلم أننا لا يمكن ان نملأ فراغات العالم المتوحش الدموي بأحلامنا الجميلة دون أن نوفر لها الحماية من مخالب الوحش وأنيابه، وكنت تدري أن البشر في هذه البلاد لطالما عانوا من (الإخضاع) المتواصل طيلة قرون وأن تغيير شكل النظام إلى نظام مختلف سيتم عن طرق إخضاع مختلفة بأقنعة ديموقراطية هشة، فالإنتخابات وحدها لاتصنع بلدا ديموقراطيا ولاشعبا واعيا بقيمة وجوده وحاضره ولابد من إشاعة التعليم الحديث والمعارف الحديثة عبر المشروع الثقافي الذي اعلنت خارطته – بنفس الوتيرة لتترسخ الديموقراطية، أما وأننا نعيش الزمن التاريخي الماضوي بكل مطالبه وتقاليده وانصياع الجموع ورضوخها له، فأننا بذلك نقف خارج زمن كوكبنا وخارج منظومة الوجود الواقعي للشعوب الحية، فشعبنا لايزال عرضة لأشد أنواع الإخضاع شراسة عبر تقنين سبل الحياة وحجب الخدمات وتحويل البشر إلى كائنات تطالب بأساسيات البقاء على قيد الحياة في اللحظة او البرهة العابرة دون ان تلتفت للتفكير بما هو آت..
كنت رجل المستقبل يا أخي وصديق الفكرة النابضة، وللسبب ذاته غادرتنا إلى المستقبل وقد رسمت لنا خارطة الحلم الثقافي ووضعتها في حاضرنا، سلاما يارجل المستقبل الذي أسرع إلى خلوده قبل أن يندرنا بالرحيل..

احلام كامل شياع

■ علي حسين

كانت قامته الباسقة كشجرة، الوجه الآخر لسيرته الواثقة وقناعاته الراسخة وإيمانه العميق بالنهايات المنتصرة لقيم التغيير والثورة والعدالة الاجتماعية،لذلك كان كامل شياع ينظر باستخفاف لتلك الأخطار التي نبهها إليه بعض الاصدقاء المتمثلة في الظهور العلني والسافر لقوى الظلام التي ظل يؤكد ضرورة محاربتها لان الحياة مع المستقبل.
لقد ادرك على نحو مبكر اننا يجب ان نعيش عصر المستقبل، كان الإيمان بالمستقبل يتخلق تدريجيا في وعي كامل شياع وبسبب شغفه بقضايا الناس التي تفرغ لها والتي أغوته بإمكانية أنطاق الكثير من المسكوت والوصول من خلالهم الى عالم جديد.
المرة الأخيرة التي شاهدت فيها كامل شياع كانت في خميس قضيناه بقاعة حوار بصحبة بعض الأصدقاء وكان وجهه مفعما بالحيوية وروحه المرحة ولسانه لا يكف عن التقاط الأفكار، تحدث عن مشروعاته وعن الخير الذي ينتظر البلاد في حال إيمان ساستها بالمستقبل، هذا المستقبل الذي لا يمكن بناؤه بأفكار معاد تصنيعها من منتجات الماضي. وللأسف النسبة الأكبر من قوانا السياسية ما زالت مشدودة للماضي، وغير قادرة على إدراك أن المستقبل، بالنسبة لنا، أهم من الماضي.
ظل كامل شياع يدرك بان قيمة الحياة في المستقبل،المستقبل الذي دفع من اجله اجمل سني حياته مشردا من منفى الى منفى، فقد عاش مثل كل المثقفين الأحرار مرارة المنفى، حين كتب عليه ان يتنقل من بلد الى بلد، متواريا عن أجهزة القمع وقسوة الاضطهاد، مكتوبا عليه ان يكفر عن "جريمة" التفكير الحر، وعليه ان ينغلق على قمعه حيث تصبح الحياة اكثر قسوة مع الظلم السياسي والقهر المصاحب لعبادة الحاكم الذي لا يجرؤ احد على مخالفته والاعتراض على ممارساته.
ولان الوطن، لم يكن بالنسبة لكامل شياع، وطنا بالمعنى المجرد، ترسمه ذكريات وأحداث، ولا هو وطن، تحدده سياسات ومبادئ،وانما الوطن كان بالنسبة له مغامرة، ليست فقط في العيش في بلاد هي الأخطر وإنما في بلاد هي العشق، العشق الذي يحتم علينا ان نبني هذه الارض ونصنع وجدانها وقيمها.
هذه هي المغامرة التي قدم كامل شياع حياته قربانا لها،مغامرة العيش في بغداد من جديد لاكتشاف سرها:.
"بين جسر باب المعظم وجسر الشهداء تمتد على جانب الرصافة بغداد القديمة. تحت ظلالها الأنيسة سنجلس يوما لنسمع دقات ساعة القشلة، ونراقب اللقالق تحرس أعشاشها، ونتحسس حجارة مبانيها الصفراء. وتحت وهج الشمس البيضاء سنخطو نحو دجلة المتعب، المتأجج ابدا..... حينها سندرك سرّ بغداد من دون صورة أو خبر "
لماذا عدت؟ يجيب كامل شياع على سؤال ظل يطرح عليه باستمرار قائلا:
" عدت إلى العراق بعدما اكتشفت أنني شخص دون مشروع خاص. في السياسة كما في الثقافة مشروعي مرتبط بالجماعة... فلا فعل ولا حضور دون مشاركة وتضامن.
عدت من المنفى وأنا مدرك أن لا عودة لي منه لأنه يجدّد نفسه في كل تماس مع ما هو مألوف أو غير مألوف. وسوف تلازمني أشباحه كما لازمتني أشباح الوطن.
كل رجوع عن المنفى تعميق لجذوره وإيهام بخفاياه. أي أوجاع سرية يورث المنفى، أي شفاء يحمل الوطن"
باستشهاد كامل شياع ادركنا نحن، محبوه بان بغداد ظلت راسخة في قلبه مثل الهوية التي تشكلت ملامحها الباكرة في اولى خطواته، وظلت مستعادة على امتداد سنوات المنفى التي تعددت، ظلت هي الذكرى والذاكرة وهي الامل،الامل بعالم جديد وزمن آخر لبغداد المقهورة على أمرها،أمل يأتي عبر الموت وتساقط الشهداء الذين يؤذنون بفجر جديد والذين وصفهم بلند الحيدري بقوله:
بغداد
من قال بان القتلى من أجلك
ماتوا؟.. سيجيئون غدا
وسنعرف فيهم كل شموع الأعياد

كلمات مرتبكة الى كامل شياع

إتصلت بك تلك الصبيحة الشتوية المشمسة وانا في طريقي الى الكلية في باب المعظم. دعوتك للتمرد على كل شيء والتمتع بجمال الشمس.. لم اخبرك يومها بانني كنت أكلمك وأتحسس بكفي الاخرى صورة صبي ألصقت على جدار، متحدية الامطار وبقايا ملصقات الساسة ووعودهم على جدار أكلح لخص قصة العراق وتنازع ساسته على كعكعته بينما صمدت ابتسامة الصبي ونادتني كي اتصل بك ايها الحالم. كان الصبي مايزال "سعيدا" لكن على جدار مثل كل الضحايا!
اردتك ان تشاركني الصباح قبل تلوثه باخبار الانفجارات والاغتيالات وكنت حينها على وشك ترك اوراقك وخططك وبريد لا يكترث غيرك في الوزارة بتفحصه أو الرد عليه.

■ إرادة الجبوري

كنت اعرف، شأني شأن صديقاتك واصدقائك، ان لديك انشغالك بمشروع ورؤية لثقافة عراقية انغمست بالعمل عليها مثل بستاني في وسط صحراء جرداء ممتلئة بالاشواك والحيوانات غير الصديقة.. كنت منكبا على ايجاد طريق لمشروعك وانت لا تملك غير ان تحلم بانها ستمطر ذات يوم وان تتحول الوحوش الضارية والعقارب الى كائنات صديقة حال سماع لحن محبتك وموسيقى الجمال التي كنت تبشر بها.. واصلت عزف لحن الحياة وسط طبول الحرب والاحقاد والثارات والكذب الذي كنت تكرهه وتترفع عن ذكر ممارسيه.
كنت اكثرنا ادراكا لقسوة الصحراء وغدرها لكنك لم تكن ترى في الامل غير ضرورة اخلاقية وليس خيارا.. عشت مقولاتك حتى اخر لحظة وانت في شارع المتنبي تجول سعيدا بكتب ابتعتها في ذلك اليوم الذي ترصدتك فيه الصحراء وغدرت بك بين نقطتين: بين الشارع الذي احببت وبين امك التي عاشت انتظارك ربع قرن ولم تزل حتى اللحظة.
الصحراء التي اختارت اغتيالك عند " محمد القاسم " وليس عند " المتنبي "!!
بين ابتسامة الصبي على الجدار وابتسامتك التي اصبحت ايقونتنا نحن صديقاتك واصدقاؤك لم تكن سوى ستة اشهر فقط. لم ارك من غير ابتسامة او كلمات سوى يوم شيعنا شهاب التميمي.. يومها لم تخفف غضبي كشأنك دائما وانا اردد "كامل لن يوفروا احدا.. راح يجي دورنا واحد واحد " لم تفعل غير الاشاحة بنظرك مبددا اللحظة بتتبع شهاب وهو يغيب عن الانظار بفوضى و"شو" لم ينجح في اخفاء مسرح الجريمة والقتلة..!
×××××
مفعما بالحماس تتبعت انشغالاتنا واغانينا او النشيد الوطني لكل واحد منا كما كنا نطلق عليه: اسماء جميل ونشيدها "جيه مالي والي "، وشروق العبايجي واغنية "اتوبه من المحبة "، ونهلة النداوي وبحثها في تلك الايام عن نشيدها واغنيتها الخاصة، وانا التي اخترت نشيدي منذ ثمانينيات القرن الماضي "هذا مو انصاف منك غيبتك هلكد تطول "، ويحيى الكبيسي المبتسم الذي ظلت اغنيته غامضة حتى اللحظة، وحيدر سعيد المولع بايجاد اغنية عراقية لم تكتب بعد!
من بين مئات الصور الفوتوغرافية التي التقطتها لرحلاتي بين بغداد والبصرة وما فيها من بؤس وخراب بين عامي ٢٠٠٦ و٢٠٠٧ لم تستوقفك غير اشجار النخيل. كنت تفكر بالجمال وسط الخراب فعرضت علي اختيار صور للنخيل تناسب تقويما عراقيا!
اتراك كنت تتعمد تجاهل تقاويم الموت المتناسلة في العراق كي تنفذ من تقاويم المنفى وقساوتها؟
كنت تعرف جيدا ان اللحظة قادمة لامحال لكنك اثرت ان تعيشها على انتظارها. لم يكن ذلك استسلاما منك لها بل محاولة للقفز عليها.. للتغلب عليها.لم تكن تريد للحظة ان تتغلب عليك مرتين: مرة قبل ان تحين ومرة عندما تحين!
قلت لك هذا وانا اقف عند نعشك في ذلك اليوم الصيفي اللاهب. كانت نهلة النداوي الانيقة دائما مهمومة بجنازة تليق بك، منزعجة من الطريقة التي وضعت فيها صورتك على علم العراق الذي لف تابوتك. كنت هناك في تابوت وكانت الخطب والكلمات التي اعرف كم كنت تكره فائض الانشاء الذي فيها تزعجك.. التفت الى بسمة الخطيب وقلت لها: فظاظة ان يكون كامل مضطرا لسماع كل هذه الخطب وهذه الموسيقى النشاز!
كلمتك حينها بسمة " كامل.. تسمع الموسيقى.. دتسمع اشكد نشاز؟"
ذهبت يومها على ظهر سيارة الى مكان لم نتمكن من منعهم من اخذك اليه.. كنا نعرف انك لم ترد ان تنام غير في بغداد التي احببت.. بالتأكيد ليس في مقبرة جامع براثا الذي ذهبت يوما الى المسؤولين فيه من اجل الحفاظ على قبور بعض من رموز العراق، طه باقر وعلي الوردي، وكيف قابلك القابضين عليها بوصفها مركز قوة وملك لا ينبغي لأحد ان يحاسبهم عليه او ينازعهم فيه!
عدنا يومها، هناء ادور وبسمة الخطيب ونهلة النداوي وانا، نذرع الطرقات متجنبات الحديث عنك واكتفينا بالحديث الى متسولة شابة كانت تتردد على المحلات لتعود نهاية اليوم بنقود الى والدها السكير!
كنا نعرف انك كنت معنا في ذلك الحوار وذلك الانشغال بكل ما اريد له ان يكون "هامشيا": الاقليات والنساء والاطفال.
كنت تراهن على نهوض الهامش يوما ما وعلى صنع حياة دينها الانسانية وبلد يؤمن بالمواطنة. لم تكن تلك شعارات تتاجر بها كما الكثير ممن عادوا الى العراق وحرصوا على العزف على لحن الضحية. قبلت بالجميع ولم تكن تنشد سوى السلام والعدالة.
برغم انشغالاتك التي لاحدود لها كنت تجد الوقت للاستماع الى أحلام "أسيد" ابن نهلة النداوي وابن النسويات. أسيد الذي اريد له ان يكون علامة على قسوة "المركز" وخطاب "السلطة" المتوحش. كانت نهلة ترتبك لاندفاع "أسيد" المحروم من نعمة الاب ومن نعمة التواصل الاجتماعي نحوك.. كان يحاول ان يتواصل مع ابتسامتك، يحاول ان يقول لك شيئا لكن اللغة تخذله وارتباك نهلة يزيد من خذلانه فتشير لها بحركة من يدك " اتركيه" تلتقط نهلة انفاسها ويروح " أسيد" يردد اسماء بلاد صار اليوم يتقن اسماء عواصمها! تتسع ابتسامتك وتتسع خريطة أسيد فتقرر نهلة وقف رحلة طفلها ابن السبعة اعوام وتسألني عن النص الذي اعمل عليه.
تنتبه وتسألني: الم تنتهي بعد؟
– هذا نص لن يكتمل على الاقل في الوقت الحالي.. نص مفتوح مادامت الارقام قوت الاخبار.
تبتسم وترد " كافي.. خلي صدق الله العظيم وانهي النص".
لم يدر في بالي يوما ما ان تكون انت الـfull stop في نص اتجنب النظر فيه منذ اربعة اعوام! لم اكن اتوقع ان تكون انت اخر قصة في who is the numbers ? "" مثلما لم نتوقع تلبية دعوتك لنا لتطعمنا من طبخك في بيتك الذي ندخله اول مرة بعد اسبوع من اغتيالك.
فكر يحيى الكبيسي ان نلبي دعوتك ونكون في ضيافتك وكانت شروق العبايجي تحول غضبها الى يوم يجتمع فيه كل الاصدقاء والصديقات المؤمنين بانسانيتك ومشروعك الثقافي. سبقتنا نهلة النداوي الى البيت وصارت توجه السيدة التي استقدمتها لحفل استقبالك لنا الى اماكن وضع الشموع وازالة الغبار عن الاثاث. كنت مأخوذة ووجلة من دخول بيتك وابتسامتك ليست فيه. بيتك الذي وجدته اخيرا ليكون مستقرك الدائم. كل شيء في مكانه لم يمس مذ تركته تلك الجمعة الى المتنبي.. اتجهت الى طاولة الكتابة فوجدت ورقة كتبت عليها اسماء مواضيع عدد" الثقافة الجديدة" المقبل ورقم موبايل صاحب المولدة بينما كان اليأس يخرج من اطار الصورة ويتفقد حضورك في المكان. ناديت يحيى ليرى آخر ماكتبته على المكتب.
توقف يحيى قليلا ثم تركني ليغلق باب غرفة نومك ويفتح باب البيت لاستقبال ضيوفك.